مرّت سنة يا جيم!

www.jeem.me

دخلت وقتها في فترة استرجاع مُطوّلة، وتذكّرت عن نفسي الكثير. تذكرتُ يوم فصلت مدرّسة العلوم الطبيعية بين الإناث والذكور بغرض تدريس الفتيات العادة الشهرية والأولاد مرضًا يُسمى "الزُهري". تذكرت أنّني حُرمت بسبب قرار الفصل اللعين هذا من رؤية قضيب لأول مرة في حياتي، قضيبًا ذابلا مُشوّهًا مريضًا بالزُهري ولو في الصور. تذكّرت أنّني لم أتلقّ يومًا درسًا بيداغوجيًا يتطرّق لا من بعيد ولا من قريب إلى الثقافة الجنسية، وأنّ المضاجعة كانت صورة مؤجلة إلى مرحلة لن أعرف قدومها. تذكرت الكثير، وتراكمت برأسي أفكار عديدة، من بينها أنّ المسألة الجنسية كانت مؤجلة في ذهني إلى درجة انعدام الفضول لاكتشاف المواقع الإباحية مثلما كان يفعل من هم في سنّي، فقد كنت أفكر أنّ ممارسة الجنس أمر بديهي يحصل بمفرده بمجرد رغبة شخصين واتفاقهما على ذلك دون أيّة مراكمة ثقافية ومعرفية. تذكّرت كيف كانت تنهرني أمّي وخالاتي بشدّة عند الاستماع إليهن وهنّ يتحدثن عن مواضيع تخصّ "الكبار" لأنني طفلة. لم أسأل يومًا ذلك السؤال الوجودي الخطير "كيف أتيت يا ماما؟" ولم يُكلّف والديّ نفسيهما عناء الإجابة بشكل فطري، كما لو كنت غصنًا أُلقي به من سابع سماء لأسقط بين حضنيهما وأصير ابنتهما المدلّلة. كنت عمياء، لدرجة أنّه لم يتملّكني الفضول حتى لطرح أسئلة عن جسدي، عن الجنس.

كنت أحمل كل عوارض التشنّج المهبلي، ولم اقبل مصارحة احد بذلك.

كنت أحمل كُلّ عوارض التشنّج المهبلي، ولم أقبل مصارحة أحد بذلك حتى المقرّبين منّي. خفت كثيرًا من فكرة الحديث، وازداد خوفي من فكرة الذهاب إلى طبيب. في ذلك الوقت، لم يكن باستطاعتي إدراك مدى فاعليّة زيارة أخصائي جنساني وقدرة ذلك على معالجتي. كنت أتنازع في داخلي بين ثنائيات كثيرة تتأرجح بين القبول بالأمر ونكرانه، بين قدرتي الذاتية على حلّ الأمر وتفكيكه لفهمه وتجاوزه، وعجزي عن إيجاد أجوبة لأسئلة من قبيل "ما الذي يحصل معي الآن؟"، وبين اقتناعي بأنّ التشنّج المهبلي لا يصيب سوى من عانَين من صدمة قوية متعلقة بالجنس.

كيف يُصيبني هذا الاضطراب ودفاتري خالية من أيّ تاريخٍ جنسي، سوى بعض القبلات أو اللمسات الحارّة.

كُلّ هذا جعلني أؤجّل فكرة زيارة الأخصائي رغم إصرار حبيبي على ذلك. خلال تلك الفترة، عُدت بنفسي إلى وضعها البدائي، متخيّلةً عن كُلّ ما أدخلته بي "الحداثة" من أفكار صرت أدرك أنّها مُزيّفة. ليس لتشويه ما في طبيعتها، وإنّما في التبنّي السريع والمفاجئ لها. لقد كانت أفكارًا مضيئة مسقطة على واقع تغزوه الظلمة. أدركت أنّ ما فعلته بنفسي لم يكن سوى تلويثًا لواجهة منزلٍ مهجور خرجت منه، ولم أعد أتعاطى معه سوى مع ما يُزيّن حديقته الجميلة. واجهت وقائع عدّة، أهمّها أنّي لا أعرف شيئًا عن الجنس ووجب البداية من الصفر.

مضت سبعة أشهر على هذه الحال، تخلّلتها العشرات من المحاولات الفاشلة، لكنّي لمست خلالها تطورًا بطيئًا جدًا وصل أخيرًا إلى القدرة على ممارسة الجنس بشكل طبيعي. ما زالت فكرة الطبيب مؤجلة لكنّي أؤمن أكثر من قبل بأهميتها وحتميتها. لم أعد أفكر الآن بأنّها تجربة كارثيّة، بل على العكس من ذلك، فكرت أنّ الأمور التي تحصل بعد طول انتظار يمكن أن تحمل طعمًا أجمل؛ كمن تنجب طفلا بعد عقمٍ طويل، أو كمن التقت بحبيب بعد غياب، مثلهما، انصهرت مع شيء بداخلي وضحكنا كثيرًا.

الآن، لم أعد أشعر بأنّ ذلك الألم قد كان على هذه الدرجة من السوء، فقد كان العامل الوحيد الذي وضعني وجهًا لوجه مع الاضطراب الذي عانيته. ذلك الألم بالذات، بات منعرجًا أساسيًا في الانتقال من مرحلة الإدراك الذهني إلى الإدراك المادي، وهو ما ساعدني على تلمُّس الأمور بكلتي يديّ؛ لكي أتحسّسها وأراقب تطوّرها شيئًا فشيئًا. يمضي الآن كل شيء على ما يرام، ولكنّي أفكّر في اللواتي لم تمنح لهنّ فرصة للتفهّم والإحاطة، سواء من قبل حبيبهنّ أو شريكهنّ وخاصة من قبل أنفسهن ومجتمعهن. أفكر في كل من مرّت بهذه التجربة لتجد نفسها ملقاة أمام باب منزلها في ليلة دخلتها. أفكر فيهن وفي كل واحدة كان يمكن أن أحلّ محلّها لولا لعبة القدر غير العادلة.

لمن لا يعرفنا

جيم موقع يهتم بالإنتاج المعرفيّ والنقديّ والثقافيّ في شؤون الجندر والجنس والجنسانية الخارج عن الخطاب السائد لوسائل الإعلام المُهيمنة. يتوجّه الموقع - وهو مشروع من معهد غوته - للشابات والشباب الناطقين/ات باللغة العربية في المنطقة وألمانيا وحول العالم، ليطرح مساحة للجميع للتعبير عن آرائهن/م والمشاركة في نقاش يخصّ كلّ الجوانب المختلفة المتعلقة بالجنسانية وتقاطعاتها بالإضافة إلى التواصل والتشبيك بين المهتمات والمهتمين سواء أفراد أو مجموعات تعمل في مواضيع مشابهة.

"تبابَي بالدم": حفصة والكروموسوم الملعون

ريم بن رجب

جميع الأطفال يتعثّرون في النطق ويصعب عليهم تحديد ما يريدونه لكنّ حفصة ظلّت إلى سن الخامسة غير قادرة على قول أيّ شيء سوى بعض الكلمات والتهتهات. أذكر جيّدًا اليوم الذي علمت فيه بإعاقة أختي المكتنزة والطريّة. كان يومًا غائمًا حزينًا نهرتها فيه لسبب ما فصرخت أمّي في وجهي باكية: "أختك مُعاقة". خرجت من البيت مرعوبة. ماذا يعني أن يكون المرء مُعاقًا؟ هل يعني هذا أنّ أختي المُكتنزة والطريّة ستموت قريبًا؟

كبرت حفصة ودخلت إلى المدرسة في إطار برنامج الدمج البيداغوجيّ لذوي الإعاقة. لم يكن هناك بقريتنا النائية التي تقع على الحدود الجزائريّة أطفال مصابون بملازمة داون سوى حفصة وجهاد، جارنا الذي كان عنيفًا مع الأطفال الأسوياء ولم يقدر على الاندماج مع عالمهم الغريب، لذلك كانت أختي الصغيرة بمثابة الكائن الفضائيّ، مثيرةً للعجب والدهشة. كان الجميع يعرفها ويحبّها لأنّها طيّبة القلب وتضحك في الوجوه العابسة ومع ذلك تعرّضت إلى التنمّر من قبل مجموعة من الأطفال الأشرار الذين ينتظمون في شكل عصابات مُحترفة في سرقة أشجار المشمش والعنب وتعذيب الحيوانات. طلبت منها مرارًا أن تكون قويّة وتردّ الفعل حتّى ألّي خصّمت لها حصّتا تدريبيّة في فنون إجرام الأطفال وحاولت تعليمها الضرب بالحجارة ولم ينفع معها شيء. المرّة الوحيدة التي رمت فيها أحدهم بالحجارة كان أوّلاً ولأسباب دفاعيّة بحتة. كنّا جالستين في حقل العجوز الشمطاء قمرة ننظر إلى الأبقار وهي ترعى، اقتربت منّا بقرة سوداء اللون وضخمة، خافت حفصة المكتنزة والطريّة وعوض أن تضرب العدوّ القادم ضربتني أنا على رأسي فخرج الدّم حارًا متدفّقًا. لم أغضب منها بل ضحكت لسذاجتها ومن وقتها ألغيت حصصي التدريبيّة وقرّرت أن أتولّى بنفسي حمايتها من العصابات المُنظّمة. أعلنت عن هذا القرار الخطير أمام كلّ أقرانها وبنات الحيّ، وقفت منتصبة شامخة رغم قصر قامتي وصرخت بصوت أجشّ لا يليق بطفلة رقيقة: "الحرب بدأت يا أبناء القحاب".

كنتُ أتنقّل بين الأحياء والأزقّة ككلب مسعور باحثة عن الأطفال الذين يضربون أختي أو ينادونها بـ"المجنونة". لم أترك طفلا حقيرًا شرّيرًا إلّا وضربته أو هدّدته حتى صارا يهابونني ويرتعبون لمجرّد سماع اسمي الذي لا يليق بوحش مثلي. كان لحفصة صديقات كثيرات يُحببنها بصدق وليس خوفًا منّي، يلعبن معها ويدافعن عنها بشراسة وصرن مُخبرات لديّ يشين بكلّ طفل أو شخص يُزعج تلك المكتنزة والطريّة. كنت أسيطر على الأمور وكان كلّ شيء يسير على ما يُرام إلى أن جاء اليوم الذي عادت فيها حفصة من المدرسة وقالت لأمّي: "هناك دم في تبّاني". كنت مراهقة أعيش مع جدّتي مبروكة في بيت غير بعيد عن بيت أهلي الذي خرجت منه حافقة بعد أن سمعت الخبر المشؤوم. كنت أصرخ وأشتم وأبكي وأتنقّل في الغرفة كثور هائج.

لم تفهم جدّتي سبب حالتي الهيستيريّة ظنّت أنّني تخاصمت مع أبي الذي لم يقبل انخراطي المبكّر في السياسة وأسلتني البدائيّة المُشكّكة في وجود الله وفي ماهيّة الدين الإسلامي. لم أكن أعرف غيره وقتها. خرجت الجدّة متأكّة على عصاها الخشبيّة من الغرفة ونادت صديقتي رانية التي تعرف كيف تتعامل معي. هدأت قليلا وقلت لهم بصوت مُختنق: "حفصة صارت امرأة وهي في سنّ التاسعة". رأسي يدور في الفراغ الكبير. كيف ستتعامل تلك الطفلة الصغيرة مع دم الحيض وآلام البطن. كيف ستضع فوطة صحيّة وتذهب إلى المدرسة دون أن تتّسخ ملابسها بالدّم. كيف ستتعامل مع الأطفال بعد هذه الفاجعة وقبلها كيف ستتعامل مع جسدها الجديد الذي دخل لتوّه إلى عالم الكبار. لم أعد أتحكّم في الأشياء وفقدت زمامًا من سلطتي الرمزيّة. لم تعد الحرب بيني وبين عصابات الأطفال المُنظّمة، صارت بيني وبين إلهٍ بعيد غير عادل.

فأجأتني حفصة بحكمتها الفطريّة التي لم توظّفها فقط في توزيع القمح بعدل على الصيصان بل أيضًا في إدارة الأزمات الطارئة. عرفت كيف تتعامل مع العادة الشهريّة ربّما أحسن منّي. لم يكن حدثا دراميًا في حياتها وإلى اليوم تتعامل بصبر وقناعة مع كلّ النوائب والشدائد مثل شيخ جليل. كانت فتاة كتومة ولا تتحدّث عن مشاعرها رغم أنّ كل شيء فيها حيّ ونابض. أحبّت أسامة جارنا وزميلها في المدرسة في صمت. علمتُ من إحدى صديقاتها النمّامات أنّها تحبّه. لم أرد إحراجها بشكل مباشر فكنت أغمزها بخبث عندما يمرّ أمام بيتنا أو يأتي للعب معها. يحمرّ وجهها المدوّر وتضحك أو تقول لي متصنّعة الجدّية: "يزّي". لم أغضب منها بل ضحكت لسذاجتها ومن وقتها ألغيت حصصي التدريبيّة وقرّرت أن أتولّى بنفسي حمايتها من العصابات المُنظّمة. أعلنت عن هذا القرار الخطير أمام كلّ أقرانها وبنات الحيّ، وقفت منتصبة شامخة رغم قصر قامتي وصرخت بصوت أجشّ لا يليق بطفلة رقيقة: "الحرب بدأت يا أبناء القحاب".

كنتُ أتنقّل بين الأحياء والأزقّة ككلب مسعور باحثة عن الأطفال الذين يضربون أختي أو ينادونها بـ"المجنونة". لم أترك طفلا حقيرًا شرّيرًا إلّا وضربته أو هدّدته حتى صارا يهابونني ويرتعبون لمجرّد سماع اسمي الذي لا يليق بوحش مثلي. كان لحفصة صديقات كثيرات يُحببنها بصدق وليس خوفًا منّي، يلعبن معها ويدافعن عنها بشراسة وصرن مُخبرات لديّ يشين بكلّ طفل أو شخص يُزعج تلك المكتنزة والطريّة. كنت أسيطر على الأمور وكان كلّ شيء يسير على ما يُرام إلى أن جاء اليوم الذي عادت فيها حفصة من المدرسة وقالت لأمّي: "هناك دم في تبّاني". كنت مراهقة أعيش مع جدّتي مبروكة في بيت غير بعيد عن بيت أهلي الذي خرجت منه حافقة بعد أن سمعت الخبر المشؤوم. كنت أصرخ وأشتم وأبكي وأتنقّل في الغرفة كثور هائج.

إن رحلة البحث والتفكير والتجريب بالعربية تراكمية، وكما نبذل جميعًا - نحن المهتمات والمهتمون - مجهودات طويلة ومنهكة للتوصل إلى حلول وسط أحيانًا، هناك محاولات مبشّرة نجحت في الوصول إلى كلمات ونسيج عربي لمصطلحات تهمنا، ما يجعل جميع مجهوداتنا ذات قيمة طالما أننا نبذلها حقًا، كما حدث مع مصطلح "الجنسانية" باللغة العربية ومرادفه الإنجليزي "Sexuality"، وهي كما يعرفها منتدى الجنسانية من فلسطين "أحد جوانب الإنسانية الملازمة للإنسان مدى الحياة. وهي تجمع ما بين الجنس، الهوية النوع-اجتماعية، الدور، التوجه الجنسي، الإروتيسية أو الإثارة الجنسية، المتعة، الحميمية، والإنجاب. يعبّر عن الجنسانية في أفكار، خيالات، رغبات، معتقدات، مواقف، قيم، تصرفات، ممارسات، أدوار وعلاقات". في هذه الحالة، كلمة "جنسانية" التي اختارها المنتدى، نجحت في معادلة الخفة والمنطقية، فهي اجتماع كلمة "جنس" (بمعنييها في العربية: الجنس البيولوجي والعملية الجنسية) وبين كلمة "إنسانية" التي تعيدنا إلى جوانب يختبرها الإنسان من أفكار ومعتقدات وخيالات وقيم ومشاعر وعلاقات وجسد، كما تذكرنا بأن هناك حقوق مشابهة بالإنسانية.

التحدي الذي يواجهنا يكمن في أن نتفتح أكثر على التجربة بكاملها. من بدء التفكير بجنسانيتنا الفردية والتعبير عنها إلى التفكير في كيفية فتح النقاش واستمراره.

أعتقد أن التحدي الذي يواجهنا كمنتجات ومنتجين للمعرفة النسوية، في ويكي الجندر وجيم وفي غيرها من المنصات، يكمن في أن نتفتح أكثر على التجربة بكاملها من بدء التفكير بجنسانيتنا الفردية والتعبير عنها إلى التفكير في كيفية فتح النقاش واستمراره حول قضايا الجندر والجنسانية والجسد في مجتمعاتنا. أن نجرب بأيدينا مرة بعد مرة إنتاج هذه المعرفة المتعلقة بالجندر والجنسانية والجسد والنسوية بالعربية، وأن لا ننتظر فقط الأكاديميا لتوجّه خطانا.

نحن، كنسويات ونسويين من كافة الأطياف؛ مثليات ومثليين ومغايرات ومغايرين وثنائيات الميول وغير خاضعات للتنميط الجندري، نستطيع التعبير عن تجاربنا وأفكارنا وأسئلتنا وأزماتنا سواء بشكل مكتوب أو بصري أو مسموع. ونستطيع مع الإصرار والإنتاج المستمر كسر تابوهات اللغة العربية وجمودها. وكما نجحت الحملات والكتابات المكثفة خلال السنوات العشرة الماضية في تعميم استخدام كلمة "التحرّش الجنسي" ومساعدة الكثيرات في التعبير عن أنفسهن بلا خوف فيما يتعرّضن له من تحرش واعتداءات، فإن إنتاجنا المعرفي المستمر على تعدد أنواعه بإمكانه نشر وتعميم وتعميق الفهم بقضايانا النسوية والجندرية والجنسانية باستخدام لغتنا نحن وما يناسبنا نحن.

لكي نظرأ عن قضايانا بلغتنا، لا لم نفكر فيها ونكتب عنها

غرة برقاوي

هذا النسق طرح أحمد مالك ضمن مجموعة "نسيمُ الشمال" عن الحب والنساء والحرية والسياسة والمواطنة ومعوقاتها في مجتمعنا العربي، وهي تنبع من تساؤل مشروع حول الحب والعلاقات والمشاعر والأحاسيس والعواطف والأحلام والأمنيات والأفكار والتصورات والمعتقدات والعادات والتقاليد والأعراف والقوانين والأنظمة والسياسات والحريات هي جزء متغير ومتحرك ومتفاعل ومتداخل ومتشابك ومتكامل ومتناقض ومتناسق ومتوازن ومتوازي ومتوازٍ ومتوازٍ ومتوازٍ
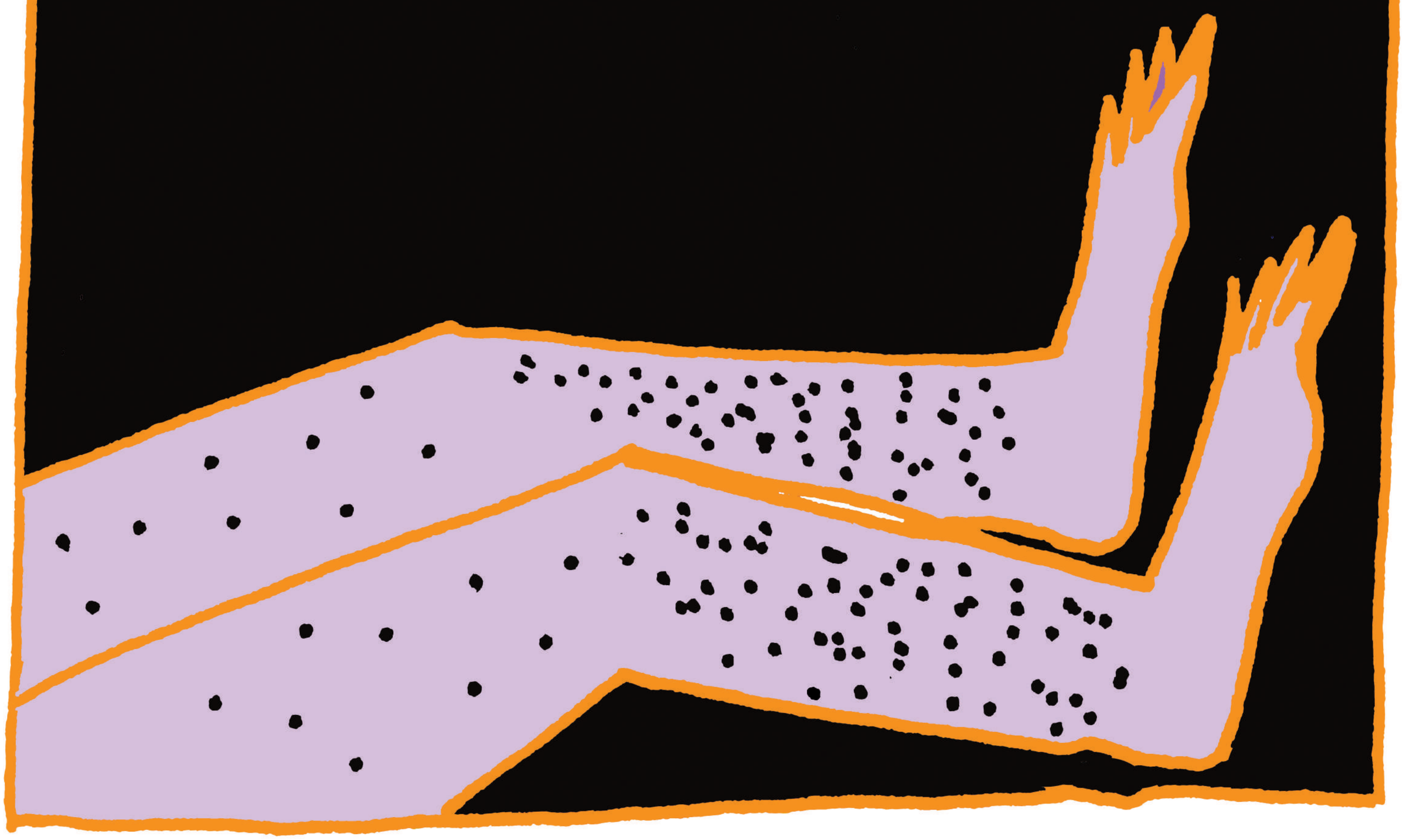
كيف نطلب المساعدة عندما تنبذ
من كل المساحات الآمنة، حتى
تلك التي حاولنا حضرها في
رؤوسنا؟!